مفهوم الحرية في النظرية السياسية
للسيد محمد باقر الصدر قدس سره

المدرس الدكتور
ساجد أحميد عبل الركابي

مفهوم الحرية في النظرية السياسية للسيد محمد باقر الصدر قدس سره

المدرس الدكتور
ساجد أحميد عبل الركابي

مقدمة:ـ

الحرية في فكر السيد الشهيد محمد باقر الصدر نابعة من أصول الدين الإسلامي، مبنية على مرتكزات أساسية من خلالها يتم تفنيد مرتكزاتها (أي الحرية) في الفكر الغربي الحديث، رأسمالي واشتراكي، ولهذا فإن الحرية لديه ليست إطاراً نظرياً فكرياً وحسب، وإنما تجسيداً واقعياً حياً يرتبط ارتباطا عميقاً بجوهر الإسلام أولاً، وجوهر الحياة الإنسانية ثانياً.

إن ابرز المنطلقات الفكرية في تحليل جوهر الحرية لدى السيد الصدر (برأينا) تتمثل في إن الله هو مصدر السلطات جميعاً، وخلافه الإنسان والثورة على يد الأنبياء.

ومن خلال الجدليات الثلاث السابقة يمكن استخلاص الحرية الحقيقية للإنسان في الإسلام. ثم لا يلبث السيد الصدر، وعبر تلك المنطلقات ان يحلل مفهوم وحقيقته وجوهر الحرية في النظامين الرأسمالي والاشتراكي وموقف الإسلام من الحرية، ومقارنة القواعد الأساسية للحرية في الإسلام والرأسمالية خصوصاً.

أولاً: الله (سبحانه وتعالى) هو مصدر السلطات جميعاً.

في استعراضه لعدد من الأفكار الأساسية لمشروع دستور للجمهورية الإسلامية في إيران، واستبطان الحالة المعنوية للشعب الإيراني على ضوء تعاليم الإسلام، ذكر السيد الصدر في مؤلفه (الإسلام يقود الحياة) الأمور

التي تتقرر على أساس إيمان الشعب الإيراني بالإسلام يقع في مقدمتها: (إن الله سبحانه وتعالى هو مصدر السلطات جميعاً) ويكمل حديثه بالتطرق إلى النتيجة النهائية والعظيمة لهذا المبدأ بقوله: ((وهذه الحقيقية الكبرى تعتبر أعظم ثورة شنها الأنبياء ومارسوا في معركتهم من أجل تحرير الإنسان من عبودية الإنسان)). ذلك يعني ارتباط النتيجة بالسبب أو المقدمة، أو العلة بالمعلول، إذ إن إدراك حقيقة إن الله سبحانه وتعالى، هو مصدر جميع السلطات، أياً كان نوعها وشكلها وحدودها وقيمتها، ومادام كذلك فإن من يمارس أية سلطة منها من الناس إنما هو نتيجة وليس سبب وبذلك فإن ذلك لا يرتب له سيادة على غيره وان لا يكون الغير عبيداً له، وهذا ما يفسره خطاب السيد الصدر بعد ذلك بقوله: ((وتعني هذه الحقيقة إن الإنسان حُر، ولا سيادة لإنسان آخر أو لطبقة أو لأي مجموعة بشرية عليه، وإنما السيادة لله وحده، وبهذا يوضع حد نهائي لكل ألوان التحكم وأشكال الاستغلال وسيطرة الإنسان على الإنسان))[١].

إن ذلك يعني ((تأسيس ما يعرف بالأصل الأولي، وهو نفي أية سلطة على الإنسان سوى السلطان الإلهي الذي يبررُ كون الإنسان مخلوقاً وعبداً له))[٢].

وينتج عن ذلك، آي مادام الله تعالى مصدر السلطات، فإن ((الشريعة هي التعبير الموضوعي المحدد عن الله تعالى))[٣]، من جانب أخر، يميز السيد الصدر ما بين سيادة الله تعالى والتي دعا إليها الأنبياء تحت شعار (لا إله إلا الله) و(الحق الإلهي) (الذي استغله الطغاة والملوك والجبابرة قروناً من الزمن للتحكم والسيطرة على الآخرين، فإن هؤلاء وضعوا السيادة إسمياً لله، لكي يحتكروها واقعياً، وينصّبوا من أنفسهم خلفاء لله على الأرض))[٤].

لو أمعنا النظر فيما أنطلق منه السيد الصدر كأساس لتحليل النظام

الاجتماعي والسياسي وهو سيادة الله تعالى وعبودية الإنسان لخالقه ونفي أية مصادر أخرى لممارسة السيادة على الإنسان والتحكم به، نجد بان السيد الصدر قد ربط بين تلك السيادة والعبودية كانطلاقة نحو هدف قد ألغته أنظمة الحكم الطاغية المدعية للحق الإلهي في الحكم وهو حرية الإنسان وتعميق إدراكه لحقيقة تلك الحرية المعطاة من الله والتي تنفي أية سيادة للإنسان على أخر، وذلك ضمن إقرار الإنسان ذاته لخضوعه لسيادة الله الواحد وعبوديته له وما السلطات التي تمارس عملياً إلا تفويضاً يعتمد على أسس ومبادئ تأكدت عبر (الشريعة) باعتبارها (التعبير الموضوعي المحدد من الله تعالى) وهذا التعبير هو الذي يحدد الطريقة التي تمارس بها هذه السلطات عن طريقة الشريعة الإسلامية.

إن هذه الحلقة مرتبطة بحلقة أخرى تستكملها وتمنحها تطبيقاً عملياً عبر فعل الأنبياء وثوراتهم التحررية، وفي ذلك يقول: ((وأما الأنبياء والسائرون في موكب التحرير - الذي قاده هؤلاء الأنبياء والأمناء من خلفائهم وقواعدهم - فقد أمنوا بهذه السيادة، وحرروّا بها أنفسهم والإنسانية من إلوهية الإنسان بكل إشكالها المزوّرة على مر التاريخ، لأنهم أعطوا لهذه الحقيقية مدلولها الموضوعي المحدد المتمثل في الشريعة النازلة بالوحي من السماء، فلم يعد بالإمكان أن تُستغلّ لتكريس سلطة فرد أو عائلة أو طبقة بوصفها سلطة إلهية))[٥].

لقد ربط السيد الصدر بين عمل الأنبياء وبين التحرير، فالتحرير جوهر ثوراتهم ومضمون دعواتهم ورسالاتهم وأطلق على مسيرتهم والسائرين معهم مصطلح (موكب التحرير) وهذا التحرير بدأ بأنفسهم فحرروها ومن ثم حرروا الإنسانية من أشكال العبودية كافة والتي تغلفت بطابع (الإلوهية) لتضفي شرعية دينية على الحكام وتعفيهم من الحساب على أخطائهم وفي ذلك تنزيه

لأعمالهم الباطلة لتكريس سلطات متنوعة تعود للفرد أو العائلة أو الطبقة.

هذا التمثيل الواقعي استمده السيد الصدر من وقائع التاريخ الإنساني وتطور أنظمة الحكم للمجتمعات البشرية وظهور نظريات الحكم الإلهي المطلق، أو التفويض الإلهي المباشر وغير المباشر، أو تدخل الإرادة الإلهية في جعل بعض الإفراد حكاماً على المحكومين وواجب طاعتهم وامتثال أوامرهم وان كانت خاطئة ومستبدة، لهذا كانت البشرية ولازالت تعاني من الاضطهاد والعسف والإذلال والعبودية التي دعت إليها وبررتها النظريات الدينية. وفي ذلك قراءة لأنظمة الحكم في الحضارات القديمة وفي أنظمة الحكم الأوربية قبل عصر النهضة والتي نسفت أسسها وركائزها الفكرية أفكار مفكري هذا العصر بعد ظهور الثورة الصناعية وصعود البرجوازية على وفق أسس جديدة لم تخلو من العبودية بإشكال أخرى.

ثانياً: خلافة الإنسان:-

بحث السيد الصدر الخلافة في كتابه (الإسلام يقود الحياة) والمعبر عن نظريته السياسية والدستورية وركائزها ومعطياتها ونتائجها في مباحث أخرى من الكتاب ذاته. بعد تأكيده على إن الله سبحانه وتعالى مصدر جميع السلطات فإنه تناول تشريف الله للإنسان بالخلافة على الأرض مما منحه تميزاً عن كل عناصر الكون (بأنه خليفة الله على الأرض) فاستحق إن تسجد له الملائكة وتدين له بالطاعة كل قوى الكون المنظور وغير المنظور[٦].

أ) أسس الخلافة:

إن الأسس التي قامت عليها الخلافة، كما يذكر السيد الصدر هي:

١- الخلافة ليست استخلافاً لشخص آدم عليه السلام بل للجنس البشري كله، لأن من يفسد في الأرض ويسفك الدماء - وفقاً لمخاوف الملائكة - ليس آدم

بالذات، بل الآدمية والإنسانية على امتدادها التاريخي. إن آدم الممثل الأول بوصفه الإنسان الأول الذي تسلم هذه الخلافة وحظي بهذا الشرف الرباني، فسجدت له الملائكة ودانت له قوى الأرض.

٢- كما تحدث القرآن الكريم عن عمليات الاستخلاف من جانب الله تعالى، كذلك تحدث عن تحمل الإنسان لأعباء هذه الخلافة بوصفها أمانة عظيمة ينوء الكون كله بحملها. قال الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[٧].

٣- لا يعني الاستخلاف على الأرض فحسب، ((بل يشمل هذا الاستخلاف كل ما للمستخلف سبحانه وتعالى من أشياء تعود إليه)). وهذا يعني أن خليفة الله في الأرض مستخلف على كل هذه الأشياء، من هنا كانت الخلافة في القرآن أساساً للحكم[٨].

٤- ولما كانت الجماعة البشرية هي التي منحت - ممثلة في آدم - هذه الخلافة، فهي إذن المكلفة برعاية الكون وتدبير أمر الإنسان، والسير بالبشرية في الطريق المرسوم للخلافة الربانية[٩].

((وهذا يعطي مفهوم الإسلام الأساسي عن الخلافة، وهو: إن الله سبحانه وتعالى أناب الجماعة البشرية في الحكم، وقيادة الكون وأعماره اجتماعياً وطبيعياً، وعلى هذا الأساس تقوم نظرية حكم الناس لأنفسهم وشرعية ممارسة الجماعة البشرية حكم نفسها بوصفها خليفة عن الله))[١٠].

في ضوء ما تقدم، تتركز خلافة الإنسان لله في الأرض في أنها خلافة عامة للجنس البشري، الإنسانية، على كل الأشياء على الأرض، وهذه الخلافة تتضمن أعباء تتحملها الإنسانية بوصف الخلافة أمانة وذلك يعني إن الإنسانية

مكلفة برعاية الكون وتدبير أمر الإنسان والسير على وفق الطريق المرسوم لهذه الخلافة. وذلك يفرز معطيات أساسية ضمن هذا المفهوم الواسع للاستخلاف الرباني كما يؤكدها السيد الصدر والتي تتمثل في:

أولاً: انتماء الجماعة البشرية إلى محور واحد وهو المستخلف (بالكسر) - أي الله سبحانه وتعالى - الذي استخلفها على الأرض بدلاً عن كل الانتماءات الأخرى، وذلك يعني الإيمان بسيد واحد ومالك واحد للكون وما فيه. وهو يعني (التوحيد الخالص) الذي قام على أساسه الإسلام ومحلقاً لواءه كل ثورات الأنبياء تحت شعار (لا إله إلا الله): ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[١١]، ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[١٢].

ثانياً: تجسيد روح الأخوة العامة في كل العلاقات الاجتماعية بعد محو ألوان الاستغلال والتسلط. وهو نتيجة منطقية لتوحيد الله والإيمان بسيادته وعبودية الناس جميعاً ومساواتهم ((فمن الطبيعي إن يكونوا إخوة متكافئين في الكرامة الإنسانية والحقوق كأسنان المشط على ما عبر الرسول الأعظم. ولا تفاضل ولا تمييز في الحقوق الإنسانية، ولا يقوم التفاضل في مقاييس الكرامة عند الله تعالى إلا على أساس العمل الصالح تقوى أو علماً أو جهاداً))[١٣]. ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[١٤]، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١٥].

ثالثاً: الخلافة استئمان، وقد عبر عنها القرآن الكريم بالأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ...﴾[١٦]. الأمانة تفترض المسؤولية والإحساس بالواجب، إذ بدون إدراك الكائن انه مسؤول لا يمكن إن ينهض بأعباء الأمانة أو يُختار لممارسة دور الخلافة[١٧]، ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[١٨].

المسؤولية علاقة ذات حدين كما عبر عنها السيد الصدر:ـ

١- هي من ناحية تعني الارتباط والتقيد، فالجماعة البشرية التي تتحمل مسؤولية الخلافة على الأرض إنما تمارس هذا الدور بوصفها خليفة عن الله ولذلك فهي غير مخولة إن تحكم بهواها أو باجتهادها المنفصل عن توجيه الله سبحانه وتعالى. لان ذلك يتنافى مع طبيعة الاستخلاف وإنما تحكم بالحق وتؤدي إلى الله تعالى أمانته بتطبيق إحكامه على عباده وبلاده[١٩].

وفي ذلك تختلف وتتميز الخلافة بمفهومها القرآني والإسلامي عن حكم الجماعة في الأنظمة الديمقراطية الغربية، فالأخيرة هي صاحبة السيادة ولا تنوب عن الله في ممارستها، ولذلك فهي ليست مسؤولة بين يدي احد وغير ملزمة بمقياس موضوعي في الحكم. على عكس حكم الجماعة القائم على أساس الاستخلاف فإنه حكم مسؤول والجماعة فيه ملزمة بتطبيق الحق والعدل ورفض الظلم والطغيان وليست مخيرة بين هذا وذاك، حتى إن القرآن الكريم يسمي الجماعة التي تقبل بالظلم وتستسيغ السكوت عن الطغيان بانها (ظالمة لنفسها) ويعتبرها مسؤولة عن هذا الظلم ومطالبة برفضه بأي شكل من الاشكال ولو بالهجرة والانفصال اذا تعذر التغيير[٢٠]. قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[٢١].

٢- وتعني المسؤولية من ناحية اخرى ((ان الانسان كائن حر، اذ بدون الاختيار والحرية لا معنى للمسؤولية. ومن اجل ذلك كان بالامكان ان يستنتج من جعل الله خليفة على الارض انه يجعل الكائن الحر المختار، الذي بإمكانه ان يصلح في الارض وبإمكانه ان يفسد ايضاً، وبإراداته

واختياره يحدد ما يحققه من هذه الامكانات))[٢٢] ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٢٣].

وفي هذه المسؤولية القائمة على الحرية يمكن البحث في جوهرها المتعلق بالإيمان على وجه الخصوص، وهو الذي يجعل الانسان متحملاً لتبعات المسؤولية الناتجة عن خلافة الله على الارض. لقد دأب القرآن على حث الناس على الايمان عن طريق التدبر والنظر والتفكر والعقل[٢٤]، فالإيمان بالله واجب بالعقل قبل ان يكون واجباً بالشرع، لان الايمان بالشرع متوقف على الايمان بالله، والسبيل الوحيد الى معرفة الله هو العقل السليم عن طريق البرهان الآني والاستدلال بالأثر على المؤثر[٢٥]. لذلك ينظر الاسلام الى الانسان كونه عاملاً، لذلك فهو مسؤول، لا يمكن فهم انفراد الانسان من بين سائر الموجودات بالعقل او القدرة على التفكير، وليس مجرد امتياز، وإنما هو مبدأ المسؤولية (التكليف) فامتياز العقل يفضي إلى المسؤولية ولأن الإنسان مسؤول فهو حر الارادة، ولا معنى للتكليف دون ان يحاسب الانسان المكلف، لان التكليف هنا يبدو وكأنه عبث. ولا يحاسب الانسان على المسؤولية دون ان يمنح المسؤول درجة من الحرية[٢٦].

إذن ترتبط المسؤولية في الاسلام، بالحرية، والذي يربط بينهما العدل (عدل الله)، ومن شروط المسؤولية ان يكون الانسان حراً قادراً موجداً لأفعاله، فلا مسؤولية الا مع القدرة على ايجاد العقل والعلم بكيفية انجازه والمريد لأحداثه، أي ان يفعله طبقاً لإرادته الحرة[٢٧]. لهذا أكد العقليون ان الجبر لا يليق بكرامة الانسان بوصفه عاقلاً ولا بالله بوصفه عادلاً. وبذلك فإن الحرية والمسؤولية متلازمتان فلا يفهم احدهما إلا مع الأخر، فحرية الارادة ليست جزءاً من كرامة الإنسان فقط بل احدى دعامتي إنسانيته، بها وبكونه عاقلاً يكون مسؤولاً، وبهما معاً ينجز مسؤولياته[٢٨].

من جانب اخر، فان السيد الصدر، أكد بان ((الكائن الحر الذي جعله الله تعالى خليفة في الارض لا تعني حريته إهمال الله تعالى له، بل تغيير شكل الرعاية، فبدلاً من الرعاية من خلال قانون طبيعي لا يتخلّف - كما تُرعى حركات الكواكب ومسيرة كل ذرة في الكون - يتولى الله سبحانه وتعالى تربية هذا الخليفة وتعليمه لكي يصنع الانسان قدره ومصيره، وينميّ وجوده على ضوء هدىً وكتاب منير))، ويضيف لإكمال هذه الفكرة: ((وان الله تعالى قد وضع له (أي الانسان) قانون تكامله من خلال خط آخر يجب ان يسير الى جانب خط الخلافة، وهو خط الشهادة الذي يمثل القيادة الربانية والتوجه الرباني على الأرض))[٢٩]. وخط الشهادة يجسده شهيد رباني يحمل الى الناس هدى الله ويعمل من اجل تحصينهم من الانحراف وهو الخط الذي أشار إليه القرآن الكريم[٣٠]، في قوله ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣١].

والذي يمكن أن نخلص إليه، مما تقدم هو ان السيد الصدر قد أكد على مقدمات ونتائج اساسية ولعل اهم هذه المقدمات في مسألة الخلافة هي:-

١- إن الله شرف الإنسان تمييزاً عن مخلوقاته بالخلافة على الارض وطاعة قوى الكون له لا كونه بديلاً عن الله انما بوصفه خليفته.

٢- هذه الخلافة للإنسانية أو للجنس البشري تتضمن أعباءً يتحملها لإنسان بحمله (الأمانة العظيمة) في هذا الكون وهي امانة استخلاف الله على كل الاشياء وذلك يعني رعاية الانسان للكون وتدبير امر الانسان والسير بالبشرية ضمن الطريق المرسوم للخلافة الربانية.

٣- ذلك يعني انتماء البشرية الى محور واحد وهو الله (المستخلف بالكسر) ويعني (التوحيد الخالص) لله جل وعلا.

٤- ينتج عن ذلك عبودية الناس جميعاً لله ومساواتهم وبهذا فإن الناس يكونوا اخوة متكافئين في الكرامة والمحقوق فلا تفاضل ولا تمييز الا على وفق مقاييس العمل الصالح.

٥- الخلافة استئمان وهي تفترض المسؤولية والاحساس بالواجب للنهوض بأعباء الامانة. أي ان المسؤولية هنا مرتبطة بالارتباط والتقيد وعدم الحكم على وفق الهوى والاجتهاد المنفصل عن توجيه الله سبحانه وتعالى، وهي (المسؤولية) من جانب آخر مرتبطة بالإنسان كونه كائن حر مختار وهو الذي يحدد - بإرادته - طريقاً نحو الاصلاح في الارض او الافساد. إلا ان تلك الحرية لا تعني اهمال الله تعالى له، بل يتولاه بالتربية والتعليم كي يصنع الانسان قدره ومصيره وذلك يعني ان خط الخلافة مرتبط بخط الشهادة الذي يجسده الشهيد الرباني على وفق هدى الله للتحصين من الانحراف.

إذن جوهر الخلافة أساس التوحيد للمستخلف (بالكسر) ومن ثم حمل الامانة واعبائها والمسؤولية المرتبطة بالمساواة بين الناس وبحرية الارادة التي تأتي بعد الرعاية والتربية الربانية عن طريق خط الشهادة.

ب) مسار الخلافة على الأرض:-

يبحث السيد الصدر بعد تحليله لأسس الخلافة وركائزها الهدف المرسوم لخلافة الانسان على الارض والاتجاه الذي يجب ان تسير في ممارستها الدائبة ومدى تحقيق هدفها واستنفاد غرضها، فيؤكد على حقائق مهمة أبرزها:

١- إن الخلافة الربانية للجماعة البشرية تقضي بطبيعتها على كل القيود المصطنعة والقيود التي تجمد الطاقات البشرية وتهدر امكانات الانسان فتصبح فرص النمو متوفرة توفراً حقيقياً.

٢- الجوهر الحقيقي للخلافة في الإسلام ان يحقق الإنسان - الخليفة على الأرض - في ذاته تلك القيم التي يؤمن بتوحدها جميعاً في الله عز وجل الذي استخلفه واسترعاه أمر الكون. فصفات الله تعالى واخلاقه من العدل والعلم والقدرة والرحمة بالمستضعفين والانتقام من الجبارين والجور الذي لا حد له، هي مؤشرات للسلوك في مجتمع الخلافة وأهداف للإنسان الخليفة، فقد جاء في الحديث ((تشبهوا بأخلاق الله)).

٣- وبما أن هذه القيم الإلهية مطلقة ولا حدّ لها، والإنسان الخليفة كائناً محدداً فان عملية تحقيق تلك القيم انسانياً تتم في حركة مستمرة نحو المطلق وسير حثيث الى الله.

٤- لم يكن من الصدفة ان يوضع العدل اصلاً ثانياً من اصول الدين ويميز سائر صفات الله تعالى بذلك، وذلك لان العدل في المسيرة الانسانية وقيامها على اساس القسط هو الشرط الاساسي لنمو كل القيم الخيرة الاخرى، وبدون العدل والقسط يفقد المجتمع المناخ الضروري لتحرك تلك القيم وبروز الامكانات الخيرة.

٥- الخلافة، إذن ((حركة دائبة نحو قيم الخير والعدل والقوة، وهي حركة لا توقف فيها، لأنها متجهة نحو المطلق، واي هدف اخر للحركة سوى المطلق - سوى الله سبحانه وتعالى - سوف يكون هدفاً محدوداً، وبالتالي سوف يجمدّ الحركة ويوقف عملية النمو في خلافة الإنسان))[٣٢].

٦- لهذا فان على الجماعة التي تتحمل مسؤولية الخلافة أن توفر لهذه الحركة الدائبة محور هدفها المطلق الكبير لكل الشروط الموضوعية والمناخ اللازم وتصوغ العلاقات الاجتماعية على اساس الركائز المتقدمة

للخلافة الربانية[٣٣]. ومن ذلك يتبين، ان الخلافة مرتبطة بالأصل المطلق وهو الله سبحانه وتعالى ومتحركة باتجاه تحقيق صفاته واخلاقه من العدل والقوة والخير لتحقيق غايات الخلافة الربانية واهدافها وغاياتها وتوكيد مسؤولية الجماعة البشرية وحملها اعباء الامانة عبر تحقيق تلك الغايات والاهداف الصالحة.

ثالثاً: الثورة على يد الأنبياء

يؤكد السيد الصدر على ان النبوة: ((ظاهرة ربانية تمثل رسالة ثورية وعملاً تغييرياً واعداداً ربانياً للجماعة لكي تستأنف دورها الصالح. وتفرض ضرورة هذه الثورة ان يستلم شخص النبي الرسول الخلافة العامة لكي يحقق للثورة أهدافها في القضاء على الجاهلية والاستغلال))[٣٤]، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٣٥]. ويبني القاعدة الثورية الصالحة، لكي يمن الله عليهم ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين))[٣٦]، ﴿...فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣٧].

إن ذلك يمثل المحصلة النهائية والثمرة التي ارادها الله سبحانه وتعالى للأنبياء ليقوموا بأداء أدوارهم في المجتمع الانساني، فالله جل وعلا لا يمكن ان يقطع صلته بالإنسان بلا تربية وتوجيه ليمنح الحرية المطلقة في اداء دور الخلافة، فهذا التوجيه الرباني لابد له من يقوم به وهم الانبياء. ولكن هذه المحصلة او النتيجة لابد لها من مقدمات واسباب وعلل يمكن تلمسها من خلال حقائق مثلتها مراحل الخلافة وسمات ثورة الانبياء:

أ) مرحلة الفطرة من الخلافة:

استشهد السيد الصدر بالقرآن الكريم لبرهنة اطروحته حول بداية الخلافة

للإنسان على الأرض وارتباطها بالفطرة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[٣٨]، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[٣٩]. كما ذكر قول الامام محمد بن علي الباقر عليه السلام في تأكيد مضمون الآيات القرآنية (أن الناس كانوا أمة واحدة على فطرة الله فبعث الله النبيين)[٤٠].

١- في ضوء النصوص يؤكد ((ان الجماعة البشرية بدأت خلافتها على الارض بوصفها أمة واحدة وأنشأت المجتمع الموحدّ. مجتمع التوحيد بركائزه المتقدمة. وكان الاساس الاولي لتلك الوحدة ولهذه الركائز الفطرة، لأن الركائز - التي يقوم عليها مجتمع التوحيد وتمثل أساس الخلافة على الأرض - كلها ذات جذور في فطرة الإنسان))[٤١]. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٤٢]. ان الايمان بالله الواحد، ورفض كل الوان الشرك والطاغوت، ووحدة الهدف والمسير معالم الفطرة الانسانية، واي شرك وجبروت، واي تناقض وتفرق فهو انحراف عن الفطرة[٤٣]. وهكذا شكلت الفطرة في البداية اساساً لإقامة مجتمع التوحيد وكان الانسان يمارس خلافة الله على الارض وفقاً لذلك. على وفق ما تقدم فان الاساس الذي اوجده الله في خلافة الانسان على الارض انما قام على اساس الفطرة وهي تعبير عن التوحيد والايمان بالله وعبوديته ودون اشراك او خضوع لطاغوت وتوحدت على اساس المصلحة العامة والهدف العام كبداية لانطلاق النوع الانساني وخلافته في الارض.

٢- كان خط الشهادة قائماً الى جانب خط الخلافة ممثلاً في الانبياء، وكان دور الانبياء في تلك المرحلة ممارسة مهمة الشهيد الرباني، مهمة الهادي والموجه والرقيب اذ كانت بعثة الانبياء الذين يحكمون بين الناس في فترة تالية للمرحلة التي كان الناس فيها امة واحدة. ففي هذه المرحلة اذن كانت خلافة والحكم للجماعة البشرية نفسها، وكان حظ الشهادة للاشراف والتوجيه والتدخل اذا تطلب الامر(٤٤).

وذلك يعني، ان الله عندما استخلف الإنسان لم يتركه دون رعاية وتربية وتوجيه وتلك الرعاية بدأت بآدم عليه السلام كممثل للبشرية في بداية خلقه ووجوده لتربية الإحساس الخُلقي وزرع الشعور بالمسؤولية وتعميقه في نفس الإنسان وذلك عن طريق امتحانه بما يوجه اليه من تكاليف وأوامر، كما يقول السيد الصدر، وهكذا تكامل وعيه في الوقت الذي كانت قد نضجت لديه خبرات الحياة المتنوعة وتعلّم الأسماء كلها من وقت خروجه من الجنة الى الأرض التي استخلف عليها ليمارس مسيرته نحو الله من خلال دوره في الخلافة(٤٥). واستكملت حلقات تلك التربية والتوجيه والتعليم بوجود الانبياء الذين اشرفوا ووجهوا وتدخلوا لتكتمل مسؤولية الانسان في خلافته للأرض..

٣- دخلت البشرية في مرحلة بدأ فيها الاستغلال والتناقض في المصالح والتنافس على السيطرة والتملك، وظهور الفساد وسفك الدماء. وذلك يرجع، كما يؤكد السيد الصدر ((وذلك لأن التجربة الاجتماعية نفسها وممارسة العمل على الارض نمّت خبرات الافراد ووسعت اماكانتهم، فبرزت الوان التفاوت بين مواهبهم وقابلياتهم، ونجم عن هذا التفاوت اختلاف مواقعهم على الساحة الاجتماعية، وأتاح ذلك فرص الاستغلال لمن حظي بالموقع الاقوى، وانقسم المجتمع بسبب ذلك الى اقوياء وضعفاء ومتوسطين، وبالتالي الى مستغلين ومستضعفين وفقدت

الجماعة البشرية بذلك وحدتها الفطرية))[٤٦]، لقد غرق المجتمع في هذه اللحظة في الوان الاستغلال وسيطرت عليه علاقات اجتماعية تجسد هذه الالوان، ومشاعر نفسيه تبرر الإنحراف عن الفطرة، وأساطير فكرية ووثنية تمزق المجتمع شيعاً واحزاباً، ولم يبق مستضعف غير ظالم لنفسه الا عدد قليل مغلوب على امره[٤٧].

ب) مرحلة الثورة على يد الأنبياء لاعادة مجتمع التوحيد

تمثل هذه المرحلة ثورة تعيد المسيرة الانسانية الى طريقها الصالح وتبني المجتمع الموحد من جديد على اساس أعمق وأوعى من أساس الفطرة وكانت الثورة بحاجة الى اساس تستند وترتكز عليه وتستمد دوافعها وحيويتها منه. فكان هناك اساسان مختلفان لهذه الثورة:

الأساس الاول: المشاعر الشخصية المتقدة بسبب ظلم الاخرين واستهتارهم بحقوق الجماعة ومصالحها في قلوب المستضعفين والمضطهدين. وينعكس الاستغلال الذي يكرس في جميع افراد المجتمع الشعور الشخصي بالمصلحة وينمي فيهم الاهتمام الذاتي بالتملك والسيطرة، سلبياً في المستضعفين على صورة المقاومة الصامتة أولاً والمتحركة ثانياً والثائرة ثالثاً على المستغلين. ان الثورة في هذه الحالة، لن تكون ثورة على الاستغلال وعلى جذوره ولن تعيد الجماعة الى مسيرتها الرشيدة ودورها الخلافي الصالح، انما هي ثورة على تجسيد معين للاستغلال من قبل المتضررين من ذلك التجسيد، وهو بمثابة تغيير لمواقع الاستغلال اكثر من كونها استئصالاً للاستغلال نفسه.

الاساس الثاني: استئصال المشاعر التي خلفتها ظروف الاستغلال واعتماد مشاعر أخرى أساساً للثورة. أي تطوير تلك المشاعر على نحو تمثيل الاحساس بالقيم الموضوعية للعدل والحق والقسط والايمان بعبودية الانسان لله - التي تحرره من كل عبودية - وبالكرامة الانسانية. ان هذا الاساس هو الذي يمثل

الخلفية الحقيقية للثورة والرصيد الروحي القادر على جعلها ثورة بدلاً عن تجميدها في منتصف الطريق، بينما الاساس الاول لا يمكن ان ينجز سوى ثورة نسبية تتغير فيها مواقع الاستغلال[٤٨]. الا ان الاساس الثاني لا يكفي وحده في قيام الثورة الحقيقية لانه يعتمد او يتوقف على التربية للمحتوى الداخلي للثائرين انفسهم واعداد روحي ونفسي - من خلال التعبئة والممارسة الثوريين - يطهّرهم من مشاعر الاستغلال ويستأصل من نفوسهم الحرص المسعور على طيبات هذه الحياة وثرواتها المادية. هذه التربية لا يمكن ان تبدأ من داخل الجماعة التي انحرفت مسيرتها وتمزقت وحدتها، بل لابد من تربية تتلقاها ولابد من هدى ينفذ الى قلوبها خارج الظروف النفسية التي تعيشها. وهنا يأتي دور الوحي والنبوة ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا﴾[٤٩]، وتتحقق بذلك كلمة الله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥٠]، بعد ان تحققت نبوءة الملائكة[٥١].

الوحي وحده هو القادر على ان يؤمن التربية الثورية والخلفية النفسية الصالحة التي تنشيء ثائرين لا يريدون في الارض علواً ولا فساداً، وتجعل المستضعفين أئمة لكي يتحملوا اعباء الخلافة بحق ويكونوا هم الوارثين ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[٥٢]، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٥٣].

والنبي الرسول هو حامل الرسالة من السماء والانسان المبنّي ربانياً لكي يبني للثورة قواعدها الصالحة ويعيد الى الجماعة الشروط الحقيقية لاستعادة دورها الخلافي الصالح، وذلك باعتماد الاساس الثاني[٥٤].

أما سمات الثورة التي قادها الانبياء فتتمثل في:

١- ان اساس الثورة هو التوحيد وهو جوهر العقيدة الاسلامية، وبالتوحيد يحرر الاسلام الانسان من عبودية غير الله ((لا آله الا الله)) ويرفض كل اشكال الألوهية المزيفة على مر التاريخ. وهذا هو تحرير الانسان من داخل، ثم يقرر كنتيجة طبيعية لذلك - تحرير الثروة والكون من أي مالك سوى الله تعالى، وهذا هو تحرير الانسان من خارج. وقد ربط أمير المؤمنين عليه السلام بين الحقيقتين حين قال ((العباد عباد الله والمال مال الله))[٥٥]. من هنا كان الاسلام - الذي كافح من أجله الانبياء - ثورة اجتماعية على الظلم والطغيان وعلى الوان الاستغلال والاستعباد[٥٦].

٢- لذلك كان الانبياء يستقطبون دائما المعذبين في الارض والجماهير البائسة التي مزقتها اساطير الالهة المزيفة روحياً وشتتها الجاهلية فكرياً، ووقعت فريسة اشكال مختلفة من الاستغلال والظلم الاجتماعي[٥٧].

٣- تميزت ثورة الانبياء عن أية ثورة اجتماعية اخرى في التاريخ تميزاً نوعياً، لأنها حررت الانسان من الداخل وحررت الكون من الخارج في وقت واحد، وأطلقت على التحرير الاول اسم: الجهاد الاكبر، وعلى التحرير الثاني اسم: الجهاد الاصغر، لان هذا الجهاد لن يحقق هدفه العظيم الا في اطار الجهاد الاكبر[٥٨].

نجم عن هذه الثورة الآتي:-

١- انها لم تضع مستغلاً جديداً في موضع مستغل سابق ولا شكلاً من الطغيان بديلاً عن شكل أخر، لأنها في الوقت الذي حررت فيه الانسان من الاستغلال حررته من منابع الاستغلال في نفسه وغيرت من نظرته الى الكون والحياة.

٢- ان صراع الانبياء مع الظلم والاستغلال لم يتخذ طابعاً طبقياً كما وقع

لكثير من الثورات الاجتماعية، لأنه كان ثورة انسانية ولتحرير الانسان من داخل قبل لك شي، ولم يكن جانبه الثوري الاجتماعي الا بناءً علوياً لتلك الثورة، حتى ان الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله، أطلق على ثورة التحرير من داخل اسم (الجهاد الاكبر) وعلى ثورة التحرير من خارج اسم (الجهاد الاصغر)[٥٩].

والذي نخلص اليه من خلال ثورة الانبياء هو ان المجتمع الانساني مر بمرحلة كان في حاجة ماسة الى ثورة تعيد تصحيح انحرافاته لوجود الاستغلال والتناقض في المصالح والتنافس على السيطرة والتملك ففقد ذلك المجتمع خصائص مجتمع التوحيد وخصائص الخلافة الربانية، على الرغم من وجود التربية والتوجيه الرباني ووجود النبي الموجه والمربي، الا ان طبيعة هذه المرحلة تطلبت ثورة حقيقية تعالج تلك الانحرافات فقامت على اساس المشاعر التي ولدها الظلم والاضطهاد في نفوس المضطهدين واسئصال المشاعر التي خلفتها ظروف الاستغلال واعتماد مشاعر اخرى اساساً للثورة فكان البديل هو الاحساس بالقيم الموضوعية للعدل والقسط والايمان بعبودية الانسان لله وحده وبالكرامة الانسانية، وجوهر ذلك الرجوع الى التوحيد والذي هو جوهر العقيدة الاسلامية وبه حرر الاسلام الانسان من عبودية غير الله ورفض كل اشكال الالوهية المزيفة والاستغلال والاضطهاد والظلم. لهذا كانت مهمة الانبياء الثورية دقيقة ومحكمة وقامت على اساس تحرير الانسان من الداخل وتحريره من الخارج عن طريق التربية الثورية ووضع قواعد سليمة لخلفية نفسية صالحة وهكذا لم تكن ثورة الانبياء ثورة طبقية تهدف الى ازالة بناءات فوقية إنما بناء انسان مرتبط بالله يمثل القاعدة الحقيقية للثورة، كما ان تلك الثورة لم تستبدل مستغل باخر وظالم باخر ومستبد باخر، بل ان هذه الثورة حررت الانسان ذاته من منابع الاستغلال في نفسه وغيرت من نظرته الى

الكون والحياة. ولذلك كله كانت ثورة الانبياء حقيقة موضوعية لاعادة بناء مجتمع التوحيد من جديد على وفق اسس ومبادئ ربانية متأتية من شريعته الاسلامية، وهكذا جسدت تلك الثورة ومبادئها الحرية الحقيقية للانسان تلك الحرية التي تنتج عن عبوديته لله سبحانه وتعالى وتوحيده (لا اله الا الله) ورفض اية عبودية اخرى ورفض الاستغلال والظلم والطغيان.

رابعاً: جوهر الحرية في النظامين الرأسمالي والاشتراكي وموقف الإسلام منها.

حلل السيد الصدر بدقة جوهر الحرية في النظامين الرأسمالي والاشتراكي واوضح الفروق الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وحلل ايضاً نواقص النظامين على وفق منهج الاسلام ووظيفة الدولة الاسلامية ومضمون نظرة هذا الدين القيم للإنسان والمجتمع الإنساني.

أ) النظام الرأسمالي:

قامت الديمقراطية الرأسمالية على الايمان بالفرد ايماناً لا حد له، وبأن مصالحه الخاصة بنفسها - تكفل بصورة طبيعية - مصلحة المجتمع في مختلف الميادين، وأن فكرة الدولة إنما تستهدف حماية الافراد ومصالحهم الخاصة فلا يجوز لها ان تتعدى حدود هذا الهدف في نشاطها ومجالات عملها[٦٠].

يذكر السيد الصدر، في مجال بحثه للحرية في هذا النظام، أربعة أنواع من الحرية هي السياسية والاقتصادية والفكرية والشخصية.

١- **الحرية السياسية:** في هذا النظام، تجعل لكل فرد كلاماً مسموعاً ورأياً محترماً في تقرير الحياة العامة للامة ووضع خططها ورسم قوانينها وتعيين السلطات القائمة لحمايتها، كما تتضمن الحياة الاجتماعية والسياسية في هذا النظام اعلان المساواة التامة في الحقوق السياسية بين المواطنين كافة، لانهم يتساوون في تحمل نتائج المسألة الاجتماعية، والخضوع لمقتضيات

السلطات التشريعية والتنفيذية. وعلى هذا الاساس قام حق التصويت ومبدأ الانتخاب العام الذي يضمن انبثاق الجهاز الحاكم - بكل سلطاته وشعبه - عن أكثرية المواطنين[٦١].

٢- **الحرية الاقتصادية:** ترتكز على الايمان بالاقتصاد الحر الذي قامت عليه سياسة الباب المفتوح، وتقرر فتح جميع الابواب وتهيئة كل الميادين امام المواطن في المجال الاقتصادي. وفي زعم المدافعين عن هذه الحرية الاقتصادية: ان قوانين الاقتصاد السياسي التي تجري على اصول عامة بصورة طبيعية كفيلة بسعادة المجتمع وحفظ التوازن الاقتصادي فيه، وان المصلحة الشخصية - التي هي الحافز القوي والهدف الحقيقي للفرد في عمله ونشاطه - هي خير ضمان للمصلحة الاجتماعية العامة. وان التنافس الذي يقوم في السوق الحرة نتيجة لتساوي المنتجين والمتجرين في حقهم من الحرية الاقتصادية يكفي وحدة لتحقيق روح العدل والانصاف في شتى الاتفاقات والمعاملات[٦٢].

٣- **الحرية الفكرية:** تعني ان يعيش الناس أحراراً في عقائدهم وأفكارهم او ما توحيه اليهم مشتهياتهم وأهواؤهم بدون عائق من السلطة. فالدولة لا تسلب هذه الحرية عن فرد، ولا تمنعه عن ممارسة حقه فيها والاعلان عن افكاره ومعتقداته والدفاع عن وجهات نظره واجتهاده[٦٣].

٤- **الحرية الشخصية:** تعبر عن تحرر الانسان في سلوكه الخاص من مختلف الوان الضغط والتحديد، فهو يملك ارادته وتطويرها وفقاً لرغباته الخاصة مهما نجم عن استعماله لسيطرته هذه على سلوكه الخاص من مضاعفات ونتائج ما لم تصطدم بسيطرة الاخرين على سلوكهم، وليست الحرية الدينية الا تعبيراً عن الحرية الفكرية في جانبها العقائدي،

وعن الحرية الشخصية في الجانب العملي الذي يتصل بالشعائر والسلوك[٦٤]. وخلاصة الامر، فان الخط الفكري العريض لهذا النظام هو: ان مصالح المجتمع مرتبطة بمصالح الافراد، فالفرد هو القاعدة التي يجب ان يرتكز عليها النظام الاجتماعي، والدولة الصالحة هي الجهاز الذي يسخر لخدمة الفرد ولحسابه والاداة القوية لحفظ مصالحه وحمايتها[٦٥].

نقد الرأسمالية:ـ

بعد ان حلل جوهر النظام الرأسمالي وانواع الحريات فيه، وجه صوبه سهام النقد على وفق بناءه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري.

١- وصف السيد الصدر هذا النظام بانه (نظام مادي خالص)، اخذ فيه الانسان منفصلاً عن مبدئه وآخرته، محدوداً بالجانب النفعي حياته المادية وافترض على هذا الشكل:

أ- انه نظام مشبع بالروح المادية الطاغية ولم يُبن على فلسفة مادية للحياة وعلى دراسة مفصلة لها. فالحياة في الجو الاجتماعي لهذا النظام فُصلت عن كل علاقة خارجة عن حدود المادية والمنفعة[٦٦].

ب- وهو نظام مشبع بروح الشك والتبلبل الفكري الذي أحدثه انقلاب الرأي في طائفة من الافكار كانت تُعد من أوضح الحقائق وأكثرها صحة[٦٧].

جـ- وهو نظام مشبع بروح التمرد والسخط على الدين المزعوم، الذي كان يجمد الافكار والعقول، ويتملق للظلم والجبروت، وينتصر للفساد الاجتماعي في كل معركة يخوضها مع الضعفاء والمضطهدين[٦٨].

٢- ومن جراء المادية التي زخر النظام بروحها، ان اقصيت الاخلاق من الحساب ولم يلحظ لها وجود في هذا النظام او تبدلت مفاهيمها ومقاييسها وأعلنت المصلحة الشخصية كهدف أعلى، والحريات جميعاً كوسيلة لتحقيق تلك المصلحة، فنشأ عن ذلك الكثير من المحن والكوارث والمآسي والمصائب.

٣- تحكم الأكثرية في الأقلية ومصالحها ومسائلها الحيوية فان الحرية السياسية كانت تعني: ان وضع النظام والقوانين وتمشيتها من حق الأكثرية، وإذا ما امتلكت هذه الاكثرية زمام الحكم والتشريع وهي تحمل العقلية الديمقراطية الرأسمالية (العقلية المادية الخالصة في الاتجاه والاهداف) فإنها ستظلم الأقلية وتهضم حقوقها في ظل قوانين تشرع لحساب الأكثرية ولحفظ مصالحها[٦٩].

٤- الحرية الاقتصادية في هذا النظام أجازت مختلف اساليب الثراء وألوانه مهما كان فاحشاً ومهما كان شاذاً في طريقته واسبابه وضمنت تحقيق ما اعلنت عنه في الوقت الذي كان العالم يحتفل بانقلاب صناعي كبير. فانكشف الميدان عن ثراء فاحش من جانب الاقلية من افراد الامة فمن اتاحت لهم الفرص ووسائل الانتاج الحديث وما زودته الحريات الرأسمالية غير المحددة ضمانات كافية لاستثمارها واستغلالها الى ابعد حد. وبذلك انقسمت الامة بسبب ذلك الى فئة في قمة الثراء، واكثرية في (المهوى السحيق).

٥- المساواة في الحقوق السياسية بين افراد المواطنين وان لم تمح من سجل النظام غير انها بعد ذلك اصبحت خيالاً وتفكيراً خالصاً، واضحت الحرية الاقتصادية هي المسيطرة وتقهر الحرية السياسية امامها. وهكذا تعود في الديمقراطية الرأسمالية في نهاية المطاف حكماً تستأثر به الاقلية

وسلطاناً يحمي به عدد من الافراد كيانهم على حساب الاخرين بالعقلية النفعية التي يستوحونها من الثقافة الديمقراطية الرأسمالية[٧٠].

٦- ان قادة هذا النظام والممسكين بقوى النفوذ والقوة فيه يمدون انظارهم - بوحي من عقلية هذا النظام - إلى الآفاق ويشعرون بوحي من مصالحهم واغراضهم انهم في حاجة الى مناطق نفوذ جديدة للبحث عن مواد اولية وكثرتها لتمد طاقات الانتاج بقوى اكبر وهي موجودة في بلاد الله العريضة وكان من الواجب الحصول عليها فاللازم السيطرة على البلاد التي تملك المواد لامتصاصها واستغلالها، والحاجة الماسة الى اسواق جديدة لبيع المنتجات الفائضة فيها وايجاد تلك الاسواق يعني التفكير في بلاد جديدة[٧١].

هذان السببان كانا مبرراً ومسوغاً منطقياً للنظام الرأسمالي وقادته للاعتداء على البلاد الامنة وانتهاك كرامتها والسيطرة على مقدراتها وموادها الطبيعية الكبرى واستغلال ثرواتها وترويج البضائع الفائضة. وهو ما عانته الإنسانية من مآسي كبيرة[٧٢].

إن ما أكد عليه السيد الصدر هو تحليل واقعي للنظام الرأسمالي والحريات الممارسة فيه وبيان عيوب هذا النظام وطبيعة تركيبه المادي المحض القائم على اشباع الرغبة والبحث عن اللذة والمنفعة الخاصة فابتعد عن كل قيم اخلاقية ومعنوية وارتهن مصيره بالواقع الاقتصادي الرأسمالي الذي تهيمن عليه فئة قليلة تتحكم بهذا النظام اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً، وافرز ذلك الواقع مآسي وويلات اثرت على المجتمع الانساني في تلك المجتمعات التي يمارس فيها هذا النظام وامتد تأثيرها نحو الامم والشعوب الاخرى فعانت الاستعمار والاستغلال والاضطهاد وربطت مصائرها بمصير النظام الرأسمالي برابطة التبعية المستمرة والابدية وهكذا فقدت الشعوب حرياتها وكرامتها

وحقوقها ونهبت مواردها وثرواتها وبقيت فقيرة ومحتاجة للعون والدعم والمساعدة واضحت اقتصاداتها ومستويات معيشية افرادها مرهونة بالنظام المالي والاقتصادي الرأسمالي. ان ما يؤكد مصداقية ما ذهب إليه السيد الصجر هو ما يعانيه العالم اليوم من أزمة اقتصادية عالمية خلقتها الانظمة الرأسمالية الغربية واضحت عاجزة عن مواجهتها وحلها وانعكست اثارها على شعوب وامم الارض الاخرى، فرابطة التبعية تفرض تأثر التابع بالمتبوع سلباً وايجاباً، على الرغم من ان توابع النظام الرأسمالي - وعلى مسيرة هذا النظام الى اليوم - لم تشهد أي فوائد حقيقية.

ب) النظام الاشتراكي والشيوعي

في الاشتراكية مذاهب متعددة، وأشهرها المذهب الاشتراكي القائم على النظرية الماركسية والمادية الجدلية التي هي عبارة عن فلسفة خاصة للحياة وفهم مادي لها على طريقة ديالكتيكية. ان هذه النظرية تصوغ الانسان كله في قالب خاص من حيث لون تفكيره ووجهة نظره الى الحياة وطريقته العملية فيها[٧٣].

من السهل ان ندرك في اول نظرة نلقيها على النظام الشيوعي المخفف او الكامل: ان طابعة العام هو افناء الفرد في المجتمع وجعله آلة مسخرة لتحقيق الموازين العامة التي يفترضها، فهو على النقيض تماماً من النظام الرأسمالي الحر الذي يجعل المجتمع للفرد ويسخره لمصالحه. فكأنه قد قدر للشخصية الفردية والشخصية - في عرف هذين النظامين - ان تتصادما وتتصارعا[٧٤].

نقد الاشتراكية والشيوعية:ـ

وجه السيد الصدر نقده للنظام الاشتراكي والشيوعي الذي جاء حلاً لمعضلات ومساوئ الرأسمالية من وجهة نظر مفكري الاشتراكية، وذلك النقد

إنما أصاب جوهر النظرية الاشتراكية والشيوعية وفكرها وعملية تطبيقها في الانظمة السياسية التي اتخذت من الاشتراكية منهجاً لها:

١- ان النظام الشيوعي وان عالج جملة من ادواء الرأسمالية الحرة للملكية الفردية غير ان هذا العلاج له مضاعفات طبيعية تجعل ثمن العلاج باهظاً وطريقة تنفيذه شاقة على النفس لا يمكن سلوكها الا اذا فشلت سائر الطرق والاساليب(٧٥).

٢- انه علاج ناقص لا يضمن القضاء على الفساد الاجتماعي كله، لانه لم يحالفه الصواب في تشخيص الداء، وتعيين النقطة التي انطلق منها الشر حتى اكتسح العالم في ظل الانظمة الرأسمالية، فبقيت تلك النقطة محافظة على موضعها من الحياة الاجتماعية في المذهب الشيوعي وبهذا لم تظفر الانسانية بالحل الحاسم لمشكلتها الكبرى(٧٦).

٣- مضاعفات هذا العلاج جسيمة جداً فان من شأنه القضاء على حريات الافراد لاقامة الملكية الشيوعية مقام الملكيات الخاصة، وذلك لان هذا التحويل الاجتماعي الهائل على خلاف الطبيعة الانسانية العامة باعتبار ان الانسان المادي لا يزال يفكر تفكيراً ذاتياً، ويحسب مصالحه من منظاره الفردي المحدود، ووضع تصميم جديد للمجتمع يذوب فيه الافراد نهائياً، ويقضي على الدوافع الذاتية قضاءً تاماً موضع التنفيذ يتطلب قوة حازمة تمسك زمام المجتمع بيد حديدية، وتحبس كل صوت يعلو فيه، وتخنق كل نفس يتردد في اوساطه وتحتكر جميع وسائل الدعاية والنشر، وتضرب على الامة نطاقاً لا يجوز ان تتعداه بحال، وتعاقب على التهمة والظنة، لئرلا يفلت الزمام من يدها فجأة. وهذا امر طبيعي في كل نظام يراد فرضه على الامة قبل ان تنضج فيها عقلية ذلك النظام وتعم روحيته(٧٧). اذن كيف يمكن ان يطمع بالحرية - في

ميدان من الميادين - إنسان حرم من الحرية في معيشته، وربطت حياته الغذائية ربطاً كاملاً بهيئة معينة، مع ان الحرية الاقتصادية والمعيشية هي اساس الحريات جميعاً.

٤- ان هذا النظام انتقص من قيمة الكرامة الفردية وحقوقها لان فيها خطراً على التيار الاجتماعي العام، كما يؤكد مفكري هذا النظام ومؤسسيه ودعاته. ان انسانساً يعتصر الآخرون طاقاته، ولا يطمئن الى حياة طيبة وعادلة وتأمين في اوقات الحاجة لهو انسان قد حرم من التمتع بالحياة، وحيل بينه وبين الحياة الهادئة المستقرة. كما ان انساناً يعيش مهدداً في كل لحظة، محاسباً على كل حركة، معرضاً للاعتقال بدون محاكمة، وللسجن والنفي والقتل لأدنى بادرة لهو انسان مروع مرعوب، يسلبه الخوف حلاوة العيش وينغص الرعب عليه ملاذ الحياة[٧٨].

٥- ان مبد الملكية الخاصة ليس هو الذي نشأت عنه آثام الرأسمالية المطلقة التي زعزعت سعادة العالم وهناءه، فهذه المآسي المروعة لم تنشأ من الملكية الخاصة التي قام النظام الاشتراكي الى الغاءها كعلاج لتلك المآسي، وانما هي وليدة المصلحة المادية الشخصية التي جعلت مقياساً للحياة في النظام الرأسمالي والمبرر المطلق لجميع التصرفات والمعاملات. ولو ابدل المقياس ووضعت للحياة غاية جديدة مهذبة تنسجم مع طبيعة الانسان لتحقق بذلك العلاج الحقيقي للمشكلة الإنسانية الكبرى[٧٩].

وخلاصة القول، ان السيد الصدر قد أكد عبر تحليلة للنظام الاشتراكي والشيوعي ونقده له، على ان هذا النظام قد نحى منحاً مادياً أيضاً كالنظام الرأسمالي، طارحاً نفسه علاجاً لمساوئ الرأسمالية التي اعتمدت الفرد وحريته محور نظامها ومرتكز فكرها وعملها، اما النظام الاشتراكي فانه قد اتخذ من النظام الاجتماعي الكلي محوراً له ومرتكزاً عملياً وفكرياً واذاب

والغى شخصية الفرد ضمن المجموع وركز على الملكية الخاصة والغاها ضمن الملكية العامة ضمن نظام شمولي كلي لم يعط للحريات والحقوق الفردية مجالاً وفشل في تقديم العلاج الناجع لمعظم المشكلات التي يعاني منها المجتمع الانساني. وقد صدقت تحليلات وتوقعات السيد الصدر بانهيار هذا النظام واستحالة استمرارية في نظام شامل تكتب فيه الطموحات الفردية فتوقف نمو المجتمع وتمزق تحت الحاح المشاكل المستعصية ولذلك فشل هذا النظام في العقد الاخير من القرن الماضي وبقيت الرأسمالية الغربية وحيدة في الميدان مهيمنة على مصائر الامم والشعوب فازدادت معها محن المجتمع الانساني وازدادت تمزقاً وانهياراً.

جـ) موقف الإسلام:-

أوضح السيد الصدر السبيل لحل المشكلة الاجتماعية وبضمنها الحرية بعد ان استعرض النظامين الرأسمالي والاشتراكي وبرهن على اخفاقهما والثمن الذي دفعته البشرية لمنهجيهما، وفي ذلك يؤكد على السبيل الذي سلكه الاسلام ((ايماناً منه بان الحل الوحيد للمشكلة تطوير المفهوم المادي للإنسان عن الحياة. فلم يبتدر الى مبدأ الملكية الخاصة ليبطله، وانما غزا المفهوم المادي عن الحياة ووضع للحياة مفهوماً جديداً، واقام على اساس ذلك المفهوم نظاماً لم يجعل فيه الفرد آلة ميكانيكية في الجهاز الاجتماعي، ولا المجتمع هيئة قائمة لحساب الفرد، بل وضع لكل منهما حقوقه، وكفل للفرد كرامته المعنوية والمادية معاً))[٨٠]. وعلى هذا الاساس يمكن ان نلمس المبادئ الرئيسة في حل المشكلة الاجتماعية في:-

١- وضع الاسلام يده على نقطة الداء الحقيقية في النظام الاجتماعي للديمقراطية وغيره من انظمة فمحاها محواً ينسجم مع الطبيعة الانسانية (فإن نقطة الارتكاز الاساسية لما ضجت به الحياة البشرية من انواع

الشقاء والوان المآسي وهي النظرة المادية الى الحياة التي نختصرها بعبارة مقتضبة في افتراض حياة الانسان في هذه الدنيا هي كل ما في الحساب من شيء، وإقامة المصلحة الشخصية مقياساً لكل فعالية ونشاط)[٨١].

٢- هنا يجيء دور الدين بوصفه الحل الوحيد للمشكلة، فإن الدين هو الاطار الوحيد الذي يمكن للمسألة الاجتماعية ان تجد ضمنه حلها الصحيح. ذلك ان الحل يتوقف على التوفيق بين الدوافع الذاتية والمصالح الاجتماعية العامة، وهذا التوفيق هو الذي يستطيع ان يقدمه الدين للانسانية، لان الدين هو الطاقة الروحية التي تستطيع ان تعوض الانسان عن لذائذه الموقوته التي يتركها في حياته الارضية أملاً في النعيم الدائم وتستطيع ان تدفعه الى التضحية بوجوده عن ايمان بان هذا الوجود المحدود الذي يضحي به ليس الا تمهيدا لوجود خالد وحياة دائمة، وتستطيع ان تخلق في تفكيره نظرة جديدة تجاه مصالحه ومفهوماً عن الربح والخسارة ارفع من مفاهيمها التجارية المادية. فالعناء طريق اللذة، والخسارة لحساب المجتمع سبيل الربح، وحماية مصالح الاخرين تعني حتماً حماية مصالح الفرد في حياة اسمى وأرفع. وهكذا ترتبط المصالح الاجتماعية العامة بالدوافع الذاتية، بوصفها مصالح للفرد في حساب الديني[٨٢].

وبذلك فان هذه القاعدة الفكرية قدمت النظرة الصحيحة للانسان الى حياته، فجعلته يؤمن بأن حياته منبثقة عن مبدأ مطلق الكمال، وانها اعداد للانسان الى عالم لاعناء فيه ولا شقاء، ونصب له مقياساً خلقياً جديداً في كل خطواته وأدواره وهو رضا الله تعالى[٨٣]. وهكذا يربط الدين بين المقياس الخلقي الذي يضعه للانسان وحب الذات المرتكزة في فطرته، وفي تعبير اخر: ان الدين يوحد بين المقياس الفطري للعمل والحياة - وهو حب الذات -

والمقياس الذي ينبغي ان يقام للعمل والحياة ليضمن السعادة والرفاة والعدالة[٨٤].

٣- ان التوفيق والتوحيد يحصل بعملية يضمنها الدين للبشرية التائهة وتتخذ العملية أسلوبين:

الاسلوب الاول: هو تركيز التفسير الواقعي للحياة وإشاعة فهمها في لونها الصحيح كمقدمة تمهيدية الى حياة اخروية يكسب الانسان فيها من السعادة على مقدار ما يسعى في حياته المحدودة هذه في سبيل تحصيل رضا الله. فالمقياس الخلقي - او رضا الله تعالى - يضمن المصلحة الشخصية في نفس الوقت الذي يحقق فيه اهدافه الاجتماعية الكبرى.

الاسلوب الثاني: الذي يتخذه الدين للتوفيق بين الدافع الذاتي والقيم او المصالح الاجتماعية هو: التعهد بتربية أخلاقية خاصة، تعنى بتغذية الانسان روحياً وتنمية العواطف الانسانية والمشاعر الخلقية فيه[٨٥].

٤- والدين باعتباره يؤمن بقيادة معصومة مسددة من الله فهو يوكل أمر تربية الانسانية وتنمية الميول المعنوية فيها الى هذه القيادة وفروعها فتنشأ بسبب ذلك مجموعة من العواطف والمشاعر النبيلة ويصبح الانسان يحب القيم الخلقية والمثل التي يربيه الدين على احترامها ويستبسل في سبيلها ويزيح عن طريقها ما يقف امامها من مصالحه ومنافعه[٨٦].

٥- الدولة الاسلامية لها وظيفتان:

احداهما: تربية الانسان على القاعدة الفكرية، وطبعه في اتجاهه واحاسيسه بطابعها والاخرى، مراقبته من خارج وإرجاعه الى القاعدة الفكرية اذا انحرف عنها عملياً ولذلك فليس الوعي السياسي للاسلام وعياً للناحية الشكلية من الحياة الاجتماعية فحسب، بل هو وعي سياسي عميق مرده الى نظرة كلية

كاملة نحو الحياة والكون والاجتماع والسياسة والاقتصاد والاخلاق، فهذه النظرة الشاملة هي الوعي الاسلامي الكامل. وهكذا هو الاسلام في أصغر عبارة واروعها: فهو عقيدة معنوية وخلقية ينبثق عنها نظام كامل للانسانية يرسم لها شوطها الواضح المحدد، ويضع لها هدفاً أعلى في ذلك الشوط ويعرفها على مكاسبها منه(٨٧).

على ضوء ذلك، يمكن ان نحدد العلاج الذي قدمه السيد الصدر للمشكلة الاجتماعية الانسانية وازالة التعارض بين المصالح الذاتية الفردية والمصالح الاجتماعية العامة والذي اكدت عليه النظريتان او النظامان الرأسمالي والاشتراكي على شكل صراع اذا ما وجد احدهما تم نفي الاخر وهكذا هما في صراع. ان العلاج هو الدين القيم الاسلام، الذي جمع بين المقاييس الذاتية المادية والمقاييس الخلقية المعنوية عبر تربية الانسان على قاعدة فكرية جوهرها التوحيد واتباع المثل الاعلى والسعي لكسب رضا الله تعالى ومراقبة السلوك الخارجي للإنسان لتحصينه من الانحراف وتتم تلك التربية على يد الانبياء والقيادة المعصومة وفروعها. لذلك لم تكن نظرة الاسلام للمشكلة الاجتماعية نظرة شكلية بل عميقة ودقيقة لم تنكر الدوافع الذاتية والفطرة لدى الانسان وحبه لذاته وحاجاته ونزعاته المادية وانما هذبتها وصاغتها ارادياً ضمن السياق المجتمعي العام دون التضحية بحقوقه وحرياته وفي الوقت ذاته اوجدت في الصالح العام المجتمعي فائدة مرجوة للافراد انفسهم وهكذا وحد الدين بين المقياس الفطري للعمل والحياة - حب الذات - ومقياس العمل والحياة فتم التوفيق بين الدافع الذاتي والقيم او المصالح الاجتماعية.

خامساً: مقارنة بين القواعد الاساسية للحرية في الاسلام والرأسمالية

على الرغم من تناولنا لمفهوم الحرية في النظام الرأسمالي بأنواعها الأربعة

والنقد الموجه لها، فإننا سنبحث القواعد الأساسية للحرية بين الإسلام والرأسمالية، لما لهذا البحث المقارن من اهمية في الاستدلال على الجوهر الحقيقي للحرية في الإسلام ولا يمكن تلمس ذلك الا بوجود قواعد مقابلة في المجال او المفهوم ذاته له من الأهمية - فكرياً وعملياً - والتأثير على حياتنا ومعتقداتنا وفكرنا ونحن نعيش العصر الذي تهيمن فيه الحضارة الغربية الرأسمالية وتتحكم في مصائرنا وحياتنا وافكارنا وتؤثر تأثيراً سلبياً على هويتنا الاسلامية. لذلك فأن من المفيد الوقوف على تلك المقارنات الفكرية لمفهوم الحرية وجوهرها بين الإسلام والرأسمالية.

في بدء المقارنة بين الحضارتين، فان السيد الصدر يبدأ من تعريف كلمة الحرية فيقول ((ونحن حين نطلق كلمة (الحرية) نقصد بها معناها العام، وهو: نفي سيطرة الغير، فإن هذا المفهوم هو الذي نستطيع ان نجده في كل من الحضارتين، وان اختلف اطاره وقاعدته الفكرية في كل منهم))[٨٨]. ومن هذه البداية تبدأ المقارنة بين الحرية في الاسلام والحرية في الديمقراطية الرأسمالية فتتضح الفروق الجوهرية.

١- الحرية في الحضارة الرأسمالية بدأت شكاً مريراً طاغياً واستحال هذا الشك في امتداده الثوري الى ايمان مذهبي بالحرية. على العكس، الحرية في الحضارة الاسلامية، تعبير عن يقين مركزي ثابت (الايمان بالله) تستمد منه الحرية ثوريتها، وبقدر ارتكاز هذا اليقين وعمق مدلوله في حياة الانسان تتضاعف الطاقات الثورية في تلك الحرية[٨٩].

ومعنى ذلك أن المفهوم الرأسمالي للحرية أساسه شك وصراع تبلور فيما بعد الى مذهب يؤمن به الناس وهو نتاج صراع طويل بين انظمة حكم شمولية ومتخلفة يسندها الاقطاع والكنيسة وطبقة برجوازية صاعدة افرزتها ظروف الثورة الصناعية في أوربا وارتفاع الوعي والمعرفة في عصر النهضة

الاوربية. على العكس من ذلك واسبق تاريخياً، فإن الحرية في الاسلام، هي اصل فكري نابع من يقين هو الايمان بالله وهو اساس الدين، وينتج عنه العبودية لله وحده وبالتالي نفي كل العبوديات ويعني من جانب اخر جوهراً حقيقياً للحرية.

٢- الحرية الرأسمالية ذات مدلول ايجابي، فهي تعتبر ان كل انسان هو الذي يملك بحق نفسه، ويستطيع ان يتصرف فيها كما يحلو له، دون ان يخضع في ذلك لأي سلطة خارجية. لأجل ذلك كانت جميع المؤسسات الاجتماعية - ذات النفوذ في حياة الإنسان - تستمد حقها المشروع في السيطرة على كل فرد من الافراد انفسهم.

اما الحرية في الاسلام فهي تحتفظ بالجانب الثوري من الحرية، وتعمل لتحرير الانسان من سيطرة الاصنام، كل الاصنام التي رزحت الانسانية في قيودها عبر التاريخ، ولكنها تقيم عملية التحرير الكبرى هذه على اساس الايمان بالعبودية المخلصة لله، ولله وحده. فعبودية الانسان لله في الاسلام - بدلاً عن امتلاكه لنفسه في الرأسمالية - هي الأداة التي يحطم بها الانسان كل سيطرة وكل عبودية اخرى لان هذه العبودية في معناها الرفيع تشعره بأنه يقف وسائر القوى الاخرى التي يعايشها على صعيد واحد امام رب واحد، فليس من حق أي قوة في الكون ان تتصرف في مصيره، وتتحكم في وجوده وحياته[٩٠].

ومضمون ما تقدم ان الفارق بين المفهومين الاسلامي والرأسمالي ان الاول يقرن بين التحرير والعبودية، التحرير من سيطرة القوى الانسانية الخارجية واستعباد الانسان والعبودية لله الواحد، فهذه العبودية تمنح الانسان الشعور بالمساواة مع الاخرين فتعزز فيه الثقة على رفض العبودية لغيره مادام مساوياً له في اصل الخلق وفي العبودية لله والوقوف امامه في الاخرة دون

اعتبار اخر يمنح انسان فارقاً وتميزاً على غيره. اما الثاني (الرأسمالي) فيعني الحرية المطلقة والتصرف المطلق حسب مشيئة الانسان ودون خضوع لايسلطة، خارجية وبضمنها الخالق ومعنى ذلك اهمال الجانب الديني مما يمنح في جانب اخر حق السيطرة للمؤسسات الاجتماعية الاخرى مادامت تتمتع بالقوى المادية والنفوذ للتفوق على الاخرين مادامت القياسات مادية بحته مما ينتج عنه عبودية قد يقتنع بها الانسان ذاته على وفق دوافع نفسية او اجتماعية او سياسية او اقتصادية وهذا المفهوم (الايجابي) يفتقد الى الثورية في رفض الاستعباد والسيطرة.

٣- الحرية في مفاهيم الحضارة الرأسمالية حق طبيعي للانسان، وللانسان ان يتنازل عن حقه متى شاء، وليست كذلك في مفهومها الاسلامي، لان الحرية في الاسلام ترتبط ارتباطاً اساسياً بالعبودية لله، فلا يسمح الاسلام للانسان ان يستذل ويستكين، ويتنازل عن حريته ((لا تكن عبداً لغيرك وقد خلق الله حراً))، فالانسان مسؤول عن حريته في الاسلام، وليست الحرية حالة من حالات انعدام المسؤولية[٩١]. وذلك يعني، الحرية في الرأسمالية هي حق من الحقوق الطبيعية للإنسان له الحق في التنازل عنها، ان اقرار هذا (المبدأ) في الحضارة الغربية انما هو استجابة لواقع الحياة فيها وهي وان كانت في جوهرها تمجد الفرد وحرياته الا انها في التطبيق تهدرها، فالانسان في هذه الحضارة ليس حراً تماماً بل هو يخضع للظروف الاقتصادية والسياسية التي تجبره على التنازل عن حريته ولذلك كان لابد من تأطيرها شرعياً بمنح هذا الانسان الحق في التنازل استجابة لتلك الظروف. او انه يمارسها على وفق شكلية قانونية وسياسية دون تحقيق مضامينها الفعلية. اما الاسلام فإنه قام على الحرية الحقيقية المتولدة عن التوحيد والعبودية لله، حتى انه

اقر عدم اكراه الاخرين على اعتناقه وجعل الايمان به مقرون بالعقل والتدبر والتفكير ورفض كل اساليب العنف والقسر والاكراه وهو بذلك يمنح حرية المعتقد والدين فمن شاء يؤمن ومن شاء يكفر. لذلك لا يقر التنازل عن تلك الحرية والقبول بالذل والاستكانة وهي بذلك وجه اخر من وجوه المسؤولية وهي ذات مضمون ثوري يرفض الاذعان للمستكبرين والظالمين والعبودية لكل اشكال الهيمنة والسيطرة ولهذا فان للحرية (معطاها الثوري الذي يحرر الانسان من سيطرة الاخرين ويكسر القيود والاغلال التي تكبل يديه. ويعتبر تحقيق هذا المدلول السلبي للحرية هدفاً من الاهداف الكبرى للرسالة السماوية بالذات)[٩٢]، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٩٣].

خاتمة:ـ

أكدت الحقائق التي طرحها السيد محمد باقر الصدر حول الحرية في نظريته السياسية، على عمق المفهوم في الإسلام، وهو الأساس فبالبناء الفكري للإنسان الذي جعله الله خليفة على الارض مرتبط بوشائج قوية بأصل الاسلام وشريعته السمحاء. لذلك نلمس اطروحات السيد الصدر حول الموضوع وهي متصلة اتصالاً وثيقاً بجوهر الاسلام، ولكنه لم يطرح المفهوم من جانب عقائدي وحسب، وانما تتبع أصوله وجذوره وتوابعه الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية، فالحرية حلقة اساسية ضمن البناء الثوري الاسلامي الهادف الى تحرير الانسان من كل العبودية والعبودية لله وحده.

إن أهم الحقائق التي أكد عليها السيد الصدر في هذا المضمار الآتي:

١- ارتباط حرية الإنسان بحقيقة مطلقة وهي (ان الله سبحانه وتعالى مصدر السلطات جميعاً) ارتباط النتيجة بالمقدمة (السبب) والعلة بالمعلول،

وتعني هذه الحقيقة ان الانسان حر ولا سيادة لإنسان آخر أو لطبقة أو لأي مجموعة بشرية عليه وانما السيادة لله وحده. ان ذلك يضع حداً نهائياً لكل الوان التحكم واشكال الاستغلال وسيطرة انسان على اخر. والمحصلة نفي اية سلطة على الانسان سوى السلطان الالهي.

٢- خلافة الإنسان لله في الأرض وهي خلافة عامة للجنس البشري على كل الاشياء على الارض وهي تتضمن اعباءً ومسؤولية وامانة، ويعني ذلك ان الانسانية مكلفة برعاية الكون وتدبير امر الانسان على وفق الطريق المرسوم لها. على وفق معطيات اساسية اهمها انتماء الجماعة البشرية الى محور واحد هو المستخلف (بالكسر) أي الله سبحانه وتعالى ويعني الايمان بسيد واحد ومالك واحد للكون وما فيه (التوحيد الخالص) وهو الذي قام على اساسه الاسلام، وحملت لواءه كل ثورات الانبياء تحت شعار (لا اله الا الله). وهذه الخلافة مرتبطة ومقيدة فالجماعة البشرية تمارس الخلافة بوصفها خليفة عن الله ولذلك فهي غير مخولة ان تحكم بهواها او باجتهادها المنفصل عن توجيه الله سبحانه وتعالى وهو يختلف عن حكم الجماعة في الانظمة الديمقراطية الغربية.

٣- مسؤولية الخلافة تعني ان الإنسان من جانب اخر، كائن حر، اذ بدون الاختيار والحرية لا معنى للمسؤولية ولكن الكائن الحر الذي جعله الله تعالى خليفة في الارض لا تعني حريته إهمال الله تعالى له، بل تغيير شكل الرعاية من خلال قانون طبيعي لا يتخلف. ان الله يتولى تربية هذا الخليفة وتعليمه لكي يصنع قدره ومصيره وينمي وجوده على ضوء هدىً وكتاب منير وذلك يعني ان خط الخلافة يرافقه خط الشهادة التي تمثل القيادة الربانية والتوجيه الرباني على الارض ويجسده شهيد رباني يحمل الى الناس هدى الله ويعمل من اجل تحصينهم من الانحراف.

٤- ثم يأتي دور الأنبياء الذين يحملون رسالة ثورية وعملاً تغيير واعداداً ربانياً للجماعة لتستأنف الجماعة دورها الصالح وتسليم النبي الرسول الخلافة العامة لكي يحقق للثورة اهدافها في القضاء على الجاهلية والاستغلال.

٥- ان جوهر الحرية في الاسلام يختلف اختلافاً جذرياً عن جوهرها في النظامين الرأسمالي والاشتراكي، النظام الأول يؤمن بالفرد إيماناً لأحد له وان مصالحة الخاصة تكفل مصلحة المجتمع في مختلف الميادين. وتتضمن تلك الحرية في هذا النظام اربعة اشكال هي السياسية والاقتصادية والشخصية والفكرية وكلها تؤكد على مضامين مادية تتركز في تحقيق وتحصيل المصلحة واللذة والمنافع الذاتية على حساب المصالح العامة.

ولهذا فانه نظام مشبع بالروح المادية الطاغية ومشبع بروح التمرد والسخط على الدين المزعوم وهو نظام اقصى الاخلاق من الحساب وادى الى نتائج مأساوية حلت بالبشرية كالظلم والاستغلال واستعمار الشعوب واضطهاد الأغلبية للأقلية وسلب حقوقها.

ثم جاءت الاشتراكية لتقلب المعادلة للصالح العام الاجتماعي وتلغي حرية الافراد وملكياتهم الخاصة وحقوقهم على وفق نظام شمولي هضم الحقوق والحريات بدعوى معالجة مساوئ الرأسمالية، الا ان هذا النظام كان ذا منحى مادي ايضاً ولم يقدم علاجاً كاملاً لمساوئ النظام الرأسمالي والتي عزاها الى الملكية الخاصة والحرية الفردية ولهذا صودرت حريات الافراد وحقوقهم. اما الاسلام فانه نظر الى الموضوع نظرة شمولية واسعة وقدم حلا ناجعاً للمشكلة الاجتماعية واستطاع الدين ان يوفق بين الدوافع الذاتية والمصالح الاجتماعية العامة وان يربط بين المقياس الخلقي الذي يضعه للإنسان وحب الذات

المرتكزة في فطرته، أي ان الدين يوحد بين المقياس الفطري للعمل والحياة وهو حب الذات والمقياس الذي ينبغي ان يقام للعمل والحياة ليضمن السعادة والرفاه والعدالة.

بهذا اكد الاسلام على ان وظيفة الدولة الاسلامية تربية الانسان على القاعدة الفكرية وطبعة في اتجاهه واحاسيسه بطابعها، ومراقبته من خارج وارجاعه الى القاعدة الفكرية اذا انحرف عنها عملياً.

هوامش البحث

(١) آية الله العظمى الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر قدس سره، مطبعة شريعة، قم ١٤٢٤هـ، ص١٨.

(٢) محمد الحسيني: السيد محمد باقر الصدر فقيهاً، نظرات في فقهه السياسي والدستوري، في (محمد باقر الصدر المؤسس والمجدد) المؤتمر العلمي السنوي الأول عن السيد الشهيد محمد باقر الصدر، مجموعة باحثين، نيسان ٢٠٠٧م، مؤسسة المعارف ٢٠٠٨، ص١٨٤.

(٣) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٩.

(٤) م. ن، ص١٩.

(٥) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، المصدر السابق، ص١٨-١٩.

(٦) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، المصدر السابق، ص١٨-١٩.

(٧) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

(٨) محمد باقر الصدر الإسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٢٨.

(٩) م. ن، ص١٢٨.

(١٠) م. ن.

(١١) سورة البقرة: ١٣٨.

(١٢) سورة يوسف: ٣٩.
(١٣) محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٢٩.
(١٤) سورة النجم: ٣٩.
(١٥) سورة الحجرات: ١٣.
(١٦) سورة الأحزاب: ٧٢.
(١٧) محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٣٠.
(١٨) سورة الإسراء: ٣٤.
(١٩) محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٣٠.
(٢٠) م. ن.
(٢١) سورة النساء: ٩٧.
(٢٢) محمد باقر الصدر، الاسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٣١.
(٢٣) سورة الانسان: ٣.
(٢٤) د. وهبة الزحيلي: آثار الحرب في الفقه الاسلامي. دراسة مقارنة، المكتبة الحديثة، دمشق ١٩٦٥، ص٧٢.
(٢٥) مصطفى ابراهيم الزلمي، الصلة بين المنقول والمعقول في المنطق الاسلامي، ندوة (مكانة العقل في الفكر العربي)، المجمع العلمي العراقي، بغداد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٦، ص٢٥-٢٦.
(٢٦) د. محمد جواد الموسوي، الاتجاه العقلي في الثقافة العربية الاسلامية ومسألة القيم الانسانية، المصدر السابق، ص٧٥-٧٦.
(٢٧) م. ن، ص٧٦.
(٢٨) م. ن.
(٢٩) محمد باقر الصدر، الاسلام يقود الحياة، ص١٣٢.
(٣٠) م. ن، ص١٣٢.
(٣١)- سورة البقرة: ٣٨.
(٣٢)-
(٣٣)-
(٣٤) محمد باقر الصدر، الاسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٥٢.
(٣٥) سورة الاعراف: ١٥٧.
(٣٦) محمد باقر الصدر، الاسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٥٢.
(٣٧) سورة الاعراف: ١٥٧.

(٣٨) سورة يونس: ١٩.
(٣٩) سورة البقرة: ٢١٣.
(٤٠) مجمع البيان، ١: ٣٠٧، نقلاً عن: محمد باقر الصدر، الاسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٤٥.
(٤١) م. ن. ص١٤٥.
(٤٢) سورة الروم: ٣٠ - ٣٢.
(٤٣) محمد باقر الصدر، الاسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٤٥.
(٤٤) م. ن، ص١٤٦.
(٤٥) م. ن، ص١٤٤.
(٤٦) م. ن، ص١٤٦.
(٤٧) م. ن، ص ١٤٧.
(٤٨) م. ن، ص١٤٨-١٤٩.
(٤٩) سورة البقرة: ٢١٣.
(٥٠) سورة البقرة: ٣٠.
(٥١) محمد باقر الصدر، الاسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٥٠.
(٥٢) سورة القصص: ٨٣.
(٥٣) سورة القصص: ٥.
(٥٤) محمد باقر الصدر، الاسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٥٠ - ١٥١.
(٥٥) محمد باقر الصدر، الاسلام يقود الحياة، مصدر سابق، ص١٥٠ - ١٥١.
(٥٦) شرح نهج البلاغة لابن ابي حديد، ٧: ٣٧، نقلاً عن المصدر السابق، ص٣٢.
(٥٧) م. ن، ص٣٣.
(٥٨) م. ن، ص٣٣-٣٤.
(٥٩) م. ن.
(٦٠) آية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر، المدرسة الاسلامية، مركز الابحاث والدراسات، مصدر سابق، ص٣٧.
(٦١) م. ن، ص٣٧-٣٨. محمد باقر الصدر، فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٢، ١٩٩٨، ص١٣-١٤.
(٦٢) م. ن، ص٣٨-٣٩. الصدر، فلسفتنا، المصدر السابق، ص١٤-١٥.
(٦٣) م. ن، ص٣٩-٤٠، الصدر، فلسفتنا، المصدر السابق، ص١٥.
(٦٤) م. ن، ص٤٠، الصدر، فلسفتنا، المصدر السابق، ص١٦.
(٦٥) م. ن، ص٤٠، الصدر، فلسفتنا، المصدر السابق، ص١٦.

(٦٦) م. ن، ص٤١، الصدر، فلسفتنا، المصدر السابق، ص١٦.
(٦٧) م. ن، ص٤١-٤٢، الصدر، فلسفتنا، المصدر السابق، ص١٧.
(٦٨) م. ن، ص٤٢، الصدر، فلسفتنا، المصدر السابق، ص١٧.
(٦٩) م. ن، ص٤٤-٤٦، الصدر، فلسفتنا، المصدر السابق، ص١٨-٢٠.
(٧٠) الصدر، المدرسة الاسلامية، ص٤٦-٤٨، فلسفتنا، ص٢١-٢٢.
(٧١) م. ن، ص٤٨-٤٩، م. ن، ص٢٢-٢٣.
(٧٢) الصدر، المدرسة الاسلامية، ص٤٩، فلسفتنا، ص٢٣.
(٧٣) م. ن، ص٥٣. م. ن، ص٢٤
(٧٤) الصدر، المدرسة الاسلامية، ص٥٨، فلسفتنا، ص٢٨.
(٧٥) م. ن، ص٥٩، م. ن، ص٢٨
(٧٦) م. ن، ص.
(٧٧) الصدر، المدرسة الاسلامية، ص٥٩. فلسفتنا، ص٢٩.
(٧٨) م. ن.
(٧٩) م. ن، ص٦١. م. ن، ٣٠-٣١.
(٨٠) الصدر، المدرسة الاسلامية، ص٧٢-٧٣، فلسفتنا، ص٣٨.
(٨١) م. ن، ص٧٣، م. ن، ص٣٨.
(٨٢) المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد محمد باقر السيد، اقتصادنا، المجلد العاشر (الاقتصاد)، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ص٣٠٦-٣٠٧.
(٨٣) الصدر، المدرسة الاسلامية، ص٧٤، فلسفتنا، ص٣٩.
(٨٤) م. ن، ص٧٦ م. ن، ص٤٠.
(٨٥) الصدر، المدرسة الاسلامية، ص٧٦-٧٨، فلسفتنا، ص٤١-٤٢.
(٨٦) م. ن، ص٧٨، فلسفتنا، ص٤٢
(٨٧) م. ن، ص٨٠-٨٢، م. ن. ص٤٤-٤٥.
(٨٨) الصدر، المدرسة الاسلامية، ص٨٥.

وردت كلمة (الحرية) في نصوص اسلامية اصيلة، فقد جاء عن امير المؤمنين علي عليه السلام ((ولا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً)، وورد عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام انه قال: ((خمس خصال من لم يكن فيه شيء منها لم يكن فيه كثير مستمتع: أولاها الوفاء، والثانية التدبير، والثالثة الحياء، والرابعة حسن الخلق، والخامسة وهي تجمع هذه الخصال (الحرية)))، نقلاً عن السيد الصدر، المدرسة الاسلامية، ص٨٥.

(٨٩) الصدر، المدرسة الاسلامية، ص٨٥.

(٩٠) م. ن، ص٨٦.
(٩١) الصدر، المدرسة الاسلامية، ص٨٧.
(٩٢) م. ن، ص٩١.
(٩٣) سورة الاعراف: ١٥٦.

قائمة المصادر

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: الكتب والدراسات.

محمد الحسيني

السيد محمد باقر الصدر فقيهاً، نظرات في فقهه السياسي والدستوري.

محمد باقر الصدر

١- الإسلام يقود الحياة.

٢- المدرسة الإسلامية.

٣- فلسفتنا.

٤- اقتصادنا.

د. محمد جواد الموسوي

الاتجاه العقلي في الثقافة العربية.

د. مصطفى إبراهيم الزلي

الصلة بين المنقول والمعقول في المنطق الإسلامي.

د. وهبة الزحيلي

آثار لحرب في الفقه الإسلامي - دراسة مقارنة.